

جامعة الزاوية (كلية التربية أبو عيسى)

المؤتمر العلمي المتخصص في اللغة والأدب في دورته الثانية

بحث بعنوان:

إحالة تنوين العوض وأثرها في التماسك النصي للخطاب القرآني

د. مصطفى صالح القموني (كلية التربية قصر بن غشير).

الملخص

حظي البحث في جوانب التماسك والانسجام في الخطاب القرآني باهتمام العلماء قديما وحديثا، وعلى مستوى علماء التراث كانت هناك جهود وإضاءات سطرها علماء البلاغة والأصول والتفسير، اختلفت جميعها لتكشف مستوى الحبكة والانسجام اللذين وسما القرآن الكريم. وفي العصر الحديث -ومع تطور الدراسات اللسانية- كانت هناك جهود حاولت توظيف بعض ما توصلت إليه لسانيات النص وتحليل الخطاب من رؤى يمكن أن تحدث تكاملا مع الدراسات النصية التراثية، وبالنظر إلى الجهود المذكورة قديما وحديثا نجد أنها أغفلت مظهرا من مظاهر التماسك في الخطاب القرآني، وهو تنوين العوض الذي يمكن إضافته إلى عناصر الإحالة التي تعمل على تماسك النص واتساقه. وهذا ما نسعى إلى تحقيقه في هذا البحث .

الكلمات المفتاحية: الإحالة، تنوين العوض، التماسك.

من المعلوم أن التعامل مع اللغة في حدود الجملة كان المنهج المتبع لدى النحاة العرب، حيث استقصوا قواعدها، ونظموا أنماطها، وأطروا حدودها، وفي المقابل اهتم الأصوليون والمفسرون والبلاغيون بالخطاب بوصفه بنية متماسكة قائمة على عدد من الجمل أو القولات على نحو لا يبتعد بالنص عن سياقه الواقعي وأبعاده التداولية، وقد ظهر ضمن

المناهج اللسانية الحديثة مقاربات نصية تقوم على تحسس مواطن الانسجام والتماسك بين أجزاء النصوص.

والواقع أن العناية بالنسق والنظام والعلاقات التي تربط أجزاء النصوص بعضها ببعض ليس وليدة هذا العصر (عصر اللسانيات والعلوم الإنسانية)، ولكنها وجدت بين علماء التراث، وهي آليات كاملة متكاملة لا تعرف الحدود الفاصلة بينها.

نتحدث هنا عما يمكن أن تقدمه لسانيات النص وتحليل الخطاب من إضافة في مجال القراءة الواعية للخطاب القرآني واستكشاف مكنوناته الإبداعية والجمالية، انطلاقاً من أن "مناهج التحليل اللساني تعد قاعدة كبرى من قواعد المعرفة وأساساً مكيماً من أسس استكشاف أعماق النص ودلالاته البادية والخفية"¹.

ميزة لسانيات النص أنها أفادت من نحو الجملة مبنى ومعنى، ولكنها أضافت إلى تلك المناهج ما يثبت نصية النص وبلاغة الخطاب من غير أن يقتصر على المناهج التي كانت تُجرى النص ثم تقف عند الأجزاء فقط، مستصحبين أن الروابط والعلاقات إذا غابت عن النص تفكك واضطرب وصار مهلهلاً، وأن تحليل الخطاب بنحو الجملة يبتعد بالنص عن سياقه الواقعي وأبعاده التداولية؛ باعتبار الخطاب مصطلحاً يشار به إلى تجاوز البنية اللغوية المجردة واستحضار خصائص غير لغوية دلالية وتداولية وسياقية.

نحاول في هذا البحث لفت الانتباه إلى ملامح من ملامح توظيف هذا المنهج في التعامل مع الخطاب القرآني، عبر النظر في عناصر التساند والتماسك بين عناصره اللفظية ومضامينه الدلالية.

من الأدوات التي تحقق سمة التماسك والترابط بين أجزاء النص القرآني واتساقه (الإحالة)، والتي لها تمثلات وتمظهرات متنوعة، أبرزها وأكثرها استعمالاً في النصوص عموماً -وفي النص القرآني على وجه الخصوص- الإحالة بالضمير، إلا أن هذا البحث سيبرز ملامح من ملامح الإحالة له دور كبير في ربط النص واتساقه لا يقل قيمة عن باقي الإحالات، أعني بذلك **تنوين العوض** التي يقوم بدور أساسي في الربط بين أجزاء الجملة الواحدة، بل والجملة المتعددة المكوّنة للنص، وهو ما يعني توسيع دائرة التعاطي معه من حيز التركيب البحث إلى فضاء الدلالة الرحب.

كما نسعى من خلال هذا البحث إلى لفت الانتباه إلى دور الإحالة بتنوين العوض في تحقيق تلاحم النص القرآني والربط بين أجزائه عبر جملة من الشواهد المنتقاة من أي الذكر الحكيم.

كما يجيب البحث عن سؤال مضمونه: ما مدى إسهام إحالة تنوين العوض في التماسك النصي للخطاب القرآني؟ وما مدى إمكانية إلحاقها بعناصر الإحالة الأخرى؟

والواقع أن ما دعاني لكتابة هذا البحث والنظر في حيثياته هو عدم وجود دراسة مستقلة (من المتقدمين ومن المتأخرين) تناولت هذا الموضوع وكشفت عن ملامح الإضافة فيه، بل إننا نجد من يحصر أنواع الإحالات في الضمير، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأل العهدية، دون إشارة إلى تنوين العوض ومدى تحقيقه لمهمة التماسك والاتساق² وإمكانية انتظامه في عقد الروابط النصية، وهذا الأمر -بقدر ما دفعني إلى الكتابة حول الموضوع- فإنه صعب عليّ المهمة؛ من جهة جمع مادة علمية تفي بالغرض وتأتلف بها عناصر البحث.

جاء البحث مقسماً على النحو الآتي:

1. مفهوم الإحالة.
2. مفهوم التماسك النصي.
3. مفهوم الخطاب
4. التنوين في اللغة العربية مفهومه وأنواعه.
5. تنوين العوض مفهومه وأنواعه.
6. شواهد قرآنية من إحالة تنوين العوض وأثرها في التماسك النصي.
7. الخاتمة .

1. مفهوم الإحالة (reference)

تعرف الإحالة بأنها "علاقة بين عنصر لغوي وآخر لغوي أو خارجي بحيث يتوقف تفسير الأول على الثاني"³، وقد عرفها أحمد المتوكل بأنها "علاقة تقوم بين الخطاب وما يحيل عليه الخطاب، إن في الواقع أو المتخيل أو في خطاب سابق/ لاحق"⁴، فهو يرى أنها علاقة تربط النص بما يحيل إليه، سواء في الواقع أو الخيال، كما يرى أن الإحالة تكون تداولية أكثر منها دلالية؛ لأنها ترتبط بالمقام الذي يشتمل على ملابسات النص والخطاب أثناء العملية التواصلية، فهو يقرر "أن أهم ما يجدر لفت النظر إليه هو أن الإحالة أدخل في التداول منه في الدلالة؛ إذ إنها ترتبط بالمقام، وتحديدًا بالمعلومات التي يفترض المتكلم وجودها لدى المخاطب عن المحال عليه حين عملية التواصل"⁵. وبهذا يتبين أن الإحالة تقوم بوظيفة ربط المتقدم بالتأخر والكشف عن مضامينه، محققة بذلك تماسك النص واكتمال دلالاته وتعزيز وحدته العضوية بنوع من الاختصار والإيجاز، كما أن الإحالة لا تمتلك دلالة مستقلة، بل تقود إلى عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من

الخطاب، وتعد الإحالة أكثر الظواهر اللغوية انتشارا في النصوص، فلا تكاد تخلو منها جملة أو يستغني عنها نص.

كما يُعد الضمير أشهر أنواع الإحالة وأكثرها استعمالا في النصوص عموما وفي النص القرآني على وجه الخصوص، بيد أنه ليس المحيل الوحيد؛ إذ ثمة محيلات أخرى في العربية تتأط بهذه الوظيفة، من أشهرها: اسم الإشارة، والاسم الموصول، وال التعريف.

يُفرق الباحثون بين الإحالة الداخلية *endopheric reference*، والإحالة الخارجية *exopheric reference*، ويقصد بالإحالة الخارجية ذلك النوع الذي يكون فيه المحال إليه غير مذكور، وإنما يتحدد من خلال السياق والمقام، أما الإحالة الداخلية، فهي التي يكون فيها المحال إليه عنصرا لغويا مذكور في النص مُدركا من الخطاب⁶. وكلا النوعين له تمظهرات في الآيات القرآنية التي تضمنت تنوين عوض.

2. التماسك النصي

التماسك *Coherence* مفهوم يعنى بخصائص الربط النحوي بين الجمل والعبارات لتأليف بنية نصية متماسكة مترابطة، وعرفه هاليدي ورقية حسن بأنه "علاقات المعنى الموجود في النص، تلك التي تعرفه بأنه نص"⁷، فهو يتعلق "بالاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص إنتاجا وإبداعا أو تلقيا واستيعابا، وبها يتم حيك المفاهيم من خلال قيام العلاقات على نحو يستدعي فيه بعضها بعضا ويتعلق بواسطتها بعضها ببعض"⁸. وعليه فإن التماسك يعد ركيزة أساسية في لسانيات النص، وهو يهتم بالأدوات النحوية التي تسهم في تماسك النص على المستوى الشكلي، كالإحالة، والحذف، والاستبدال، والعطف، والاتساق المعجمي.

3. مفهوم الخطاب

الحديث عن النص يستدعي الحديث عن الخطاب؛ إذ بينهما تواشج وتعلق يحتم علينا إيراد هنا. وقد ردت تعريفات عدّة للخطاب في حقول معرفية مختلفة، باعتباره فعلا يجمع بين القول والعمل، فهذا من سماته الأصلية، "وليس في هذا تشتت، بقدر ما فيه من غنى وسعة في التصنيف"⁹. يأتي لفظ الخطاب بمعنى الشأن أو الأمر، يقال: ما خطبك، أي ما أمرك، والخطاب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، ومنه قولهم: جلّ الخطاب، أي عظم الأمر والشأن، ومنه الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، قال ابن فارس: "وإنما سُمي بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة"¹⁰. وبالإمكان القول ببناء على ما تقدم:- إن الخطاب في اللغة هو الكلام الذي يُقصد به الإفهام، أو هو أحكام وقواعد تسلسل العبارات في الكلام.

والجدير بالذكر أن "مصطلح (الخطاب) يوحى أكثر من مصطلح (النص) بأن المقصود ليس مجرد سلسلة لفظية (عبارة أو مجموعة من العبارات) تحكمها قوانين الاتساق الداخلي (الصوتية، والتركيبية،

والصرفية، والدلالية)، بل كل إنتاج لغوي يُربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية بالمعنى الواسع¹¹.

4. التنوين وأنواعه

التنوين: مصدر نَوَّنَت الكلمة جعلت لها نونا، ثم غلب حتى صار اسما للنون الساكنة التي تكون زائدة لغير التوكيد، وتلحق أواخر الاسم لفظا وتفارقه خطأ ووقفا¹²، وأشهر تقسيم للتنوين¹³ هو على النحو الآتي:

1. تنوين التمكين: وهو اللاحق للأسماء المعربة، كزيد، ورجل، إلا جمع المؤنث السالم، نحو: مسلمات، وإلا نحو: جوار، وغواش.
2. تنوين التنكير: وهو اللاحق لبعض الأسماء المبنية، فرقا بين معرفتها ونكرتها، ويطرد فيما آخره (ويه)، نحو: سيوييه، ولا يطرد في أسماء الأفعال.
3. تنوين المقابلة. وهو اللاحق لما جمع بألف وتاء زائدتين، نحو: مسلمات؛ لأنه يقابل النون في جمع المذكر، نحو: مسلمين، وليس تنوين الصرف¹⁴. بقي النوع الرابع، وهو ما نفرده بالحديث فيما يأتي؛ لكونه محور بحثنا:
4. تنوين العوض

1.4 ماهيته: هو ما يجيء بدلاً من حرف أصلي حذف، أو من كلمة، أو جملة، أو أكثر؛ ليحل محل المحذوف، ويعني عنه¹⁵. يُعد تنوين العوض من مظاهر الحذف والاختصار اللتين زخرت بهما العربية، يقول عنه ابن جني: "قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه"¹⁶، وقال: "الحذف هنا إنما الغرض به التخفيف"¹⁷. ويقول الدكتور أحمد عفيفي: "لا شك أن الحذف في اللغة -سواء كان قياسياً أو سماعياً- هو نوع من التخفيف من الثقل النطقي للفظ أو التخفيف من بعض عناصر الجملة في حال طولها؛ سواء كان لحرف، أو لكلمة، أو لكلمة"¹⁸.

تنوين العوض يكون عن جملة محذوفة حلّ التنوين محلها، والاعتماد في تحديد ذلك المحذوف يكون عبر سياق الكلام الذي قد يكون تحديد الجملة أو الجمل من خلاله قريبا مباشرا، وقد يكون مُلتبساً دائراً على عدّة احتمالات، على ما يأتي التمثيل له.

أكثر ما يكون تنوين العوض في (إذ) عند ما تتصل باليوم أو الحين وما يكون في زمرتهما، نحو: (يومئذ)، و(حينئذ)، و(ساعتئذ)، وقد أطلق عليه النحاة تنوين العوض؛ لأنه حلّ محل الجملة التي كان حقها أن تُذكر بعد الظرف، وبالتالي يُضاف الظرف إليها، وهو ضربٌ من الإيجاز غايته تحسين اللفظ وتزيينه إلى جانب الاختصار، كما أن هذا التنوين قسم مستقل، وله أثره الخاص في بنية الكلمة، وهو (التعويض)، فلا يدل بنفسه على إعراب ولا بناء، ولهذا يدخل في آخر الأسماء المتمكنة وغير المتمكنة: أي: يدخل في آخر الأسماء

المعربة والمبنية¹⁹. وأما الكسرة التي لحقت (الذال) فليست كسرة إعراب؛ لأن (إذ) ملازمة للبناء، وإنما هي لالتقاء الساكنين²⁰.

والجدير بالذكر أن النحاة لما خافوا التباس تنوين العوض في: (يوماً)، و(حيناً)، و(ساعةً) بغيره من تنوين التمكّن والتنكير، توصلوا إلى الدلالة على الجمل المحذوفة المضاف إليها هي في الأصل، وذلك بأن أبدلوا من تلك الظروف ظرفاً لازماً للإضافة إلى الجمل، خفيفاً في اللفظ، صالحاً لجميع أنواع الأزمنة، من الساعة، والحين، والليلة، وغير ذلك، وقد جرت العادة بأن تُحذف الجمل المضاف هو إليها مع إبدال التنوين منها؛ وذلك ليكون التنوين كأنه ثابت في الظروف المبدل منها؛ لأن بدل الكل مع قيامه مقام المبدل منه في المعنى مطلق على ما أطلق عليه فكأنه هو²¹.

2.4 أنواع تنوين العوض

ينقسم تنوين العوض إلى ثلاثة أقسام:

1. عوض عن جملة، وهو الذي يلحق (إذ) عوضاً عن جملة تكون بعدها، كما في قوله تعالى: (وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ)²²، فالتنوين هنا محيل على جملة سابقة، وهي: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ)²³، أي حين إذ بلغت الروح الحلقوم تنظرون.

ويمكن التمثيل له في غير القرآن بهذين المثالين:

أ. سرت في البستان وقطفت وردة، وكنت ساعتئذ قريباً من السور، والمعنى: وكنت ساعة إذ سرت قريباً من السور.

ب. تزوج أخي وكنت حينئذ صغيراً، والمعنى: تزوج أخي وكنت حين إذ تزوج أخي صغيراً.

2. عوض عن مفرد، وهو اللاحق لـ(كل)، و(بعض) عوضاً عما تضافان إليه، نحو: (كُلُّ قَائِمٍ)، أي: كل إنسان قائم. ومن أمثله قوله تعالى: (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)²⁴، والمعنى: كل إنسان يعمل على شاكته. ومن أمثله في غير القرآن ما يأتي:

أ. كلُّ فرح بنجاحه، أي: كل إنسان فرح بنجاحه.

ب. قرأت كتب اللغة غير بعض، أي قرأت كتب اللغة غير بعض الكتب.

ج. قسمت المال بين المستحقين، فأعطيت كلاً نصيبه، أي كل مستحق.

3. عوض عن حرف، وهو اللاحق للأسماء المنقوصة في حالتها الرفع والجر عند تجردها من (ال) ومن الإضافة، نحو: جوارٍ، وغواشٍ، وقاضٍ²⁵.

ولكن تنوين العوض الذي يحقق للنص سمة التماسك والاتساق والترابط بين أجزائه يمكن جعله منحصرا في تنوين العوض عن الجملة أو الكلمة دون تنوين العوض عن الحرف.

وتجدر الإشارة هنا أنه على الرغم من سمة الاختصار والخفة التي يجلبها تنوين العوض للنص، إلا أن سمة التماسك تبدو أهم قيمة وأعلى قدرا من التخفيف والإيجاز، بل إن من يتأمل يجد أن التنوين من الناحية الصوتية فيه اقتصاد في الجهد العضلي والأدائي؛ إذ هو من الناحية الفونولوجية يبدو صوتا خيشوميا لا يحتاج إلى أي كلفة أو جهد، إلا أن له قوة إنجازيه تضيف على النص نمطا من الاتساق والتلاحم، وذلك بما تحدثه إحالته من استصحاب لعدد من الجمل التي يكون في تكرارها جهد وكلفة لا تخفى.

وعليه فتنوين العوض يقوم بمهمة الإحالة القبلية، أي أنها تربط جزءا لاحقا من النص بجزء سابق، وهو ما يفضي إلى اتساق النص وتماسكه، كما يتميز هذا النوع من الإحالة بقدرته على استدعاء عدد من الجمل. وهذا ما نسعى لإظهار شيء من ملامحه فيما يأتي:

5 نماذج تطبيقية من إحالة تنوين العوض في القرآن الكريم

1.5 نماذج من إحالة تنوين العوض عن جملة

نستعرض فيما يأتي بعض الأمثلة القرآنية التي تضمنت إحالة تنوين العوض على جمل كانت فيها سمة التماسك ظاهرة، ولم نسلك منهجا محددًا في انتخاب هذه الأمثلة؛ إذ القصد لفت الانتباه إلى هذا الملمح التماسكي فحسب، وذلك مما يتأتى بقليل من الشواهد، وليُقَسَّ ما لم يُقَلَّ على ما قيل، أما استقصاء الشواهد في ذلك واستيعاب النماذج الدائرة في فلكه فإنه جدير بأن تُخصَّص له دراسة أكاديمية تلاحق أسراره النظمية وتستكشف مضامينه الإبداعية.

في البدء نشير إلى أن الأولى أن تكون الجملة المحذوفة ما قرب من الطرف متى ما أمكن ذلك²⁶. ويشترط فيها أن تكون سابقة ومتقدمة عليه، بخلاف الضمير الذي قد يتقدم على المرجع أحيانا وتكون إحالته قبلية لا سيما فيما يُعرف بضمير الشأن، وهو ما تكون الإحالة فيه على متأخر، وذلك خلاف الأصل. فلنستعرض الآن بعضا من النماذج القرآنية:

1. قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)²⁷ التنوين في (يَوْمَئِذٍ) هو تنوين العوض، حذف الجملة السابقة وعوض منها هذا التنوين، والتقدير: يوم إذ جننا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيدا = يود

الذين كفروا وعصوا الرسول، أي: كفروا بالله وعصوا رسوله، وظاهر ما أحدثه هذا التنوين من إحالة أغنت عن إعادة ذكر الجملة دون أن يحدث اضطرابا في بناء النص القرآني ولا خلخلة في نظامه.

2. قال تعالى: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ)²⁸ التنوين في (حِينِيذٍ) تنوين العوض، والمحذوف جملة عوض منها التنوين، ويكون تقدير الكلام بعد إظهار البنية العميقة له: وأنتم حين إذ بلغت الروح الحلقوم = تنظرون، فاستعويض بالتنوين عن إعادة ذكر الجملة، وفي هذا من الخفة والإيجاز والربط ما لا يخفى.

3. قال تعالى: (وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ)²⁹ التنوين في (يَوْمَئِذٍ) عوضًا عن الجملة التي تضاف (إذ) إليها، والأصل -والله أعلم-: ويوم إذ غلبت الروم = يفرح المؤمنون، "حذفت جملة: (غلبت الروم)، وجيء بالتنوين عوضًا عن الجملة المحذوفة إيجازًا وتحسينًا"³⁰، ولكن مع الإيجاز والتحسين توجد هنا سمة الإحالة التي أضفت على الآية تماسكا في نظامه وترابطا بين أجزائه أحال فيه الذهن إلى مذكور سابق.

4. قال تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجَّيْنُ كِتَابٍ مَرْقُومٍ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)³¹.

التنوين في (يَوْمَئِذٍ) أحال إلى جملة بعيدة نسبيًا منه، وهي قوله تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، فتصير معنى الكلام بعد تفكيكه: ويل يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين = للمكذبين، وهذه من أجلى المواضع التي برزت فيها سمة التماسك والترابط التي ما كان ليتحقق لولا تنوين العوض.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن التعويض قد يكون عوضا عن عدد من الجمل لا عن جملة واحدة وهذا له أمثلة عديدة من القرآن الكريم منها:

1. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ)³². فتاب التنوين في (يَوْمَئِذٍ) عن الجمل التي تقدمت عليه، ويكون تقدير الكلام بناء على ذلك: يقول الإنسان يوم إذ يبرق البصر ويخسف القمر ويجمع الشمس والقمر: أين المفر.

ومنها كذلك قوله تعالى:

2. (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)³³، استعويض بالتنوين في (يَوْمَئِذٍ) بكل ما تقدمه من جمل متوالية، فيؤول الكلام بعد إبراز المعوض عنه: يوم إذ تُزلزل الأرض زلزالها، وتُخرج الأرض أثقالها = تحدث أخبارها، فحذفت هذه الجمل الثلاثة وأُتي بالتنوين، فقيل: (يومئذٍ) ، ومما يدعو إلى العجب أن النحاة عندما يذكرون هذا التنوين غالبا ما يقرنونه ويمثلون له بالتعويض عن جملة واحدة، وهذا يؤكد عليه الباحثون المعاصرون من أن النحاة قد انصب

اهتمامهم على ما يتعلق بالجملة دون ما يتعلق بالنص الذي يتألف بالضرورة من عدة جمل.

فيما مر من شواهد تعمدنا إيراد ما كانت الإحالة فيه داخلية تحيل إلى مذكور متقدم في الكلام يمكن أن نذكره بذاته بدل التنوين، ولكن في المقابل قد يكون المحال إليه غير مذكور في الكلام، وإنما نقدر لفظاً محالاً إليه يكون مفهوماً من السياق، ومن أمثله:

1. (وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا)³⁴، فتتوين العوض هنا يحيل إلى مفهوم من الكلام، تقديره -والله اعلم- وإذا حصل ذلك الأمر، وهو الاستفزاز والإخراج من الأرض = لا يلبثون خلفك إلا قليلاً.

2. (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)³⁵، تتوين العوض هنا لا يحيل إلى مذكور في السياق المقالي، وإنما تُدرك إحالته عبر السياق المقامي، وفي هذا يقول أبو حيان كاشفاً عن إحالة تتوين العوض هنا: "التنوين عوض من الجملة، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً منها، لكن لما تقدم لفظ الغاشية، وأل موصولة باسم الفاعل، فتتحل للتي غشيت، أي للداهية التي غشيت، فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها"³⁶. فبينما كانت الإحالة في الشواهد الأولى مذكورة ومحالة إليها بنصها، كانت الشواهد هنا غير مصرح بها، وهذا يستدعي تقديرات متعددة يسعى المؤول لإثبات أنسبها وأقربها دلالة متذرعاً في ذلك بالسياقين العام والخاص.

3. (مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ)³⁷، التنوين في (يَوْمَئِذٍ) تتوين عوض من جملة محذوفة يتضمنها الكلام السابق، التقدير: من يُصرف عنه يوم إذ يكون الجزاء = فقد رحمه؛ إذ لم تتقدم جملة مصرح بها يكون التنوين عوضاً عنها³⁸. وفي إعراب الدعاس عند هذا الموضع: "وتنوينه تتوين عوض عن جملة محذوفة، أي يوم يأتيهم العذاب"³⁹.

4. (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ)⁴⁰، التنوين في (يَوْمِئِذٍ) تتوين العوض محيل إلى يوم القيامة الذي يكونون فيه بمأمن من حصول الإذلال والهوان، ولكن لم تتقدم جملة هنا فيها ذكر يوم القيامة ولا ما يكون فيه، ولكن ذلك يُدرك بمعونة دلالة السياق التي بواسطتها يتكشف المحال إليه⁴¹.

ولما كانت إعادة تتوين العوض إلى مرجعه من أهم الواجبات التي يقوم بها مفسر النص؛ لكونها تزيل عنه اللبس وتوضح دلالاته، إلا أن المحال إليه قد يتعدد لتعدد الجمل التي تقبل الإحالة إليها، ولا يبعد أن تكون جميعها مرادة؛ حتى تكون مستصحبة مرادة ومقدرة في موضع تتوين العوض، ولا يخفي ما في هذا من ملمح بلاغي إعجازي انفرد به القرآن الكريم.

ومن أمثلة هذا الاختلاف في المحال إليه ما جاء في قوله تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ)⁴²، التتوين في (يَوْمَئِذٍ) تنوين العوض، ويجوز أن يكون التقدير: يوم إذ ترى الجبال، ويجوز أن يكون التقدير: يوم إذ ينفخ في الصور، ولا سيما إذا فسر بأنه نفخ القيام من القبور للحساب، ويكون الفزع إذ ذاك واحداً⁴³.

2.5 نماذج من إحالة تنوين العوض عن كلمة

أكثر ما يكون تنوين العوض عن كلمة في لفظي (كل) و(بعض)، كما نقول:

1. كلُّ يحضر الدرس، والمنصت منهم قليل.

2. أصدقاؤى كثيرون، فدعوتُ بعضاً، وتركت بعضهم.

ويستعان في تعيين المضاف إليه وتحديد هـنا بمعونة قرينة السياق كما مر⁴⁴. وله شواهد كثيرة من القرآن الكريم ناب فيه التتوين عن كلمة سابقة، وقد يكون عن جمل أيضاً على ما يأتي بيانه باقتضاب.

1. (وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُهَا)⁴⁵ التتوين في (كُلِّ) تنوين عوض من الإضافة، والمضاف إليه المحذوف اختلف في تقديره، فقيل: المعنى: ولكل طائفة من أهل الأديان، وقيل: المعنى: ولكل أهل صقع من المسلمين وجهة من أهل سائر الآفاق، إلى جهة الكعبة، وراءها وقدامها، ويمينها وشمالها، ليست جهة من جهاتها بأولى أن تكون قبلة من غيرها، وقيل: المعنى: ولكل نبي قبلة، وقيل: المعنى: ولكل ملك ورسول صاحب شريعة جهة قبلة⁴⁶.

2. (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)⁴⁷، تنوين (كُلِّ) تنوين عوض عما تضاف إليه (كُلِّ)، وهو مقدر يعلم من السياق، أي ولكل الفريقين المؤمن البار بوالديه والكافر الجامع بين الكفر والعقوق درجات، أي مراتب من التفاوت في الخبر بالنسبة لأهل جزاء الخير وهم المؤمنون، ودرجات في الشر لأهل الكفر⁴⁸.

3. (وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ)، فبعد أن ذكر الله لنبيه م حال المشركين من قومه وبقائهم في العبادة على ما كان عليه أبواهم، وما ذكره له من شأن قوم موسى واختلافهم في التوراة، أخبره أنه جامع لكل أعمالهم صغريها وكبيرها جليلها وحقيرها، وهذا مستفاد من الإحالة القبلية المضمنة في تنوين العوض من (كللاً)، وإذا ما استحضرننا السياق العام لسورة هود التي وردت فيها هذه الآية، فلا يبعد (والله أعلم) أن يكون تنوين العوض مُحِيلاً على كل من ذُكروا في السورة وكاشفة عن حالهم في نهايتها.

الخاتمة

نخلص في ختام هذا البحث إلى هذه النتائج:

1. إن تنوين العوض -مع قلة وروده في القرآن مقارنة بغيره من أدوات التماسك الأخرى على رأسها الضمير- إلا انه قام بمهمة التماسك النصي في مواضع كثيرة من الخطاب القرآني.
2. إن مخرجات درس اللساني النصي وما تتسم به من الدقة والشمول، بالإمكان جعلها في إطار نظري وإجرائي بحيث تكون داعمة لما أنتجه علماء التراث في مجال الدراسات النصية ومحقة بذلك تكاملاً معرفياً معها، وهو ما يستفاد منه في الكشف عن مكامن الإبداع في القرآن الكريم الذي يقبل أي قراءة جادة تنضبط بالضوابط الذي وضعها علماء التراث.
3. إثبات كون تنوين العوض ملمحاً من ملامح التماسك النصي دون تصريح بذلك في دراسة قديمة أو حديثة يثبت أن ثمة مباحث مكنزة في تراثنا جديرة بالبحث والتنقيب عنها بمعونة الدراسات الحديثة التي يمكن أن تمدنا في ذلك بالرافد المنهجي.
4. المحال إليه بتنوين العوض لم يأت على نمط واحد، بل وجدناه تارة مذكوراً في الكلام، وتارة مقدرًا حسب قرينة السياق، وتبين لنا من خلال لاستقراء الجزئي أن مرجع هذا التنوين قد يكون كلمة أو جملة أو عدة جمل.
5. لم يقتصر دور تنوين العوض في الربط بين الجمل والآيات وتحقيق التماسك النصي على مستوى الآية فحسب، بل ثبت له -إلى جانب الربط- دور مهم في التفسير، وهو إزالة اللبس والإبهام عن كثير من السياقات.

فهرس المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الأسترابادي، رضي الدين، شرح الرضي على الكافية تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس 1978م، د ط.
3. الأزهر، الزناد، نسيج النص بحث في ما يكون الملفوظ به نصا . المركز الثقافي العربي ط 1 1993م.
4. الأزهرى خالد بن عبد الله (905هـ) ، شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 2000م.
5. الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، تفسير البحر المحيط، دار الفكر - بيروت 1420هـ د ط.
6. بوردع، عبد الرحمن، في لسانيات النص وتخليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقران الكريم بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية 2013/2/16، بإشراف مركز تفسير بالمملكة العربية السعودية.
7. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار عالم الكتب - بيروت، د ط.

8. حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة، د ط.
9. درويش، محيي الدين، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) ، الطبعة الرابعة، 1415هـ.
10. الدعاس، أحمد عبید إعراب القرآن الكريم دار المنير ودار الفارابي - دمشق الطبعة الأولى، 1425هـ.
11. صافي، محمود بن عبد الرحيم، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة الرابعة، 1418هـ.
12. الصبان، محمد بن علي(1206هـ)، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1997م.
13. ظاهرة التخفيف في النحو العربي، د احمد عفيفي الدر المصرية اللبنانية ط1 1417هـ 1996م.
14. ظاهرة التنوين في الدرس النحوي امحمد فرج فرحات . مجلة وادي النيل للدراسات والأبحاث العدد السابع يوليو 2015م ص 451-453.
15. ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر - تونس 1984هـ.
16. المتوكل، احمد، الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، دار الامان، المغرب، ط1، 2010م.
17. المرادي، بدر الدين حسن بن قاسم(749هـ)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك شرح وتحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي الطبعة: الأولى 2008م.
18. المرادي، بدر الدين حسن بن قاسم(749هـ)، الجنى الداني في حروف المعاني تحقيق: د فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1992م.
19. مصلوح، سعد، نحو اجرومية للنص الشعري
20. يونس، محمد محمد، قضايا في اللغة واللسانيات وتحليل الخطاب، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، 2013م.

الهوامش

- 1 انظر في لسانيات النص وتحليل الخطاب ص. 15.
- 2 وممن قام بذلك الدكتور محمد يونس في بحث له حول الإحالة وأثرها في دلالة النص وتماسكه قال فيه: "وتتحقق الإحالة في العربية بالضمائر بأنواعها، وأسماء الإشارة، والتعريف بأل، والمقارنة". قضايا في اللغة واللسانيات ص. 58.
- 3 انظر قضايا في اللغة واللسانيات، صص. 15-16.
- 4 الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص. 73.
- 5 المصدر نفسه، ص. 74.
- 6 انظر نسيج النص بحث في ما يكون الملفوظ به نصا، ص. 119.
- 7 انظر قضايا في اللغة ص. 52.
- 8 انظر حو اجرومية للنص الشعري ص. 154.
- 9 استراتيجيات الخطاب، ص. 33.
- 10 انظر، لسان العرب، ج1، ص. 32.

- 11 قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص. 16.
- 12 إعراب القرآن وبيانه 129/3.
- 13 هناك من أوصل أنواع التتوين لعشرة أنواع، إلا أن هذه الأربعة هي التي اتفق عليها النحاة وشاعت في مصنفاتهم.
- 14 انظر الجنى الداني 145.
- 15 النحو الوافي 41/1.
- 16 الخصائص 287/1.
- 17 المصدر نفسه 287/1.
- 18 ظاهرة التخفيف في النحو العربي، ص. 217.
- 19 انظر النحو الوافي 41/1.
- 20 إعراب الجدول 100/7.
- 21 شرح الرضي 178/3.
- 22 الواقعة: 87.
- 23 الواقعة: 86.
- 24 الإسراء: 84.
- 25 انظر الجنى الداني ص. 145. وانظر ظاهرة التتوين في الدرس النحوي. ص. 451-453.
- 26 انظر التحرير والتتوير 53/20.
- 27 سورة النساء: الآية 42.
- 28 سورة الواقعة: الآيات 83-84.
- 29 سورة الروم: الآية 4.
- 30 انظر شرح التصريح 25/1.
- 31 سورة المطففين: الآية 8-11.
- 32 سورة القيامة: الآيات 7-10.
- 33 سورة الزلزلة: الآيات 1-4.
- 34 سورة الاسراء: الآية: 76.
- 35 سورة الغاشية: الآية: 2-3.
- 36 انظر البحر المحيط 461/10.
- 37 سورة الأنعام: الآية: 16.
- 38 البحر المحيط 455/4.
- 39 إعراب الدعاس 293/1.
- 40 سورة هود: الآية: 66.
- 41 انظر لبحر المحيط 178/6.
- 42 سورة النمل: الآية: 86.
- 43 انظر البحر المحيط 275/8.
- 44 انظر شرح الرضي 178/3.
- 45 سورة البقرة الآية 148.
- 46 انظر البحر المحيط 36/2.
- 47 سورة الأحقاف الآية 19.
- 48 انظر التحرير 41-4/26.